حجاجيّة محادثة المأدبة

المقامة الجاحظية نموذجا

عزالدين الناجح
كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس

1 ـ الحجاج ومحادثة الطعام أي علاقة ؟

يقتضي الحديث عن صلة الحجاج بمحادثة المأدبة حديثا أوليا في بعض مقدمات الدرس الحجاجي التي نراها ضرورية ضمن مباحث التداولية المندمجة، التي يلحّ روّادها على أنّ الحجاج يشقّ كلّ الخطابات (روث أموسى، 2005). بل ويذهب الأمر ببعضهم إلى اعتبار «أنّ الخطاب بين النادل والحريف في المقهى تحكمه الوظيفة الحجاجية»(ديكرو، 1997). فعلماء التداولية المندمجة يقرّون بأنّ الوظيفة الحجاجية في اللغة هي وظيفة مركز وهي وظيفة أولية تندرج تحتها جلّ وظائف اللغة الأخرى. حتى أنّ ديكرو وصاحبه يعتبران أن وظائف اللغة الأخرى، بما في ذلك الوظيفة الإخبارية informative والوظيفة التواصلية communicative، هي وظائف ثانوية secondaires وهي إلى ذلك هامشية parasitaires (انظر ديكرو واسكومبر 1997 وديكرو 2001 واسكومبر، 2001)، وإذ كان في طرحهما هذا مغالاة وتعسّف على وظائف اللغة إلا أنّ ما يحسب لهما هو المنوال الذي توخّياه في البرهنة على نجاعة طرحهما وهو منوال استدلالي متين قوامه تعريف الحجاج بمبدإ التوجيه. حيث يقرّان أنّ الحجاج هو محض توجيه للخطاب والمخاطب نحو

نتائج محددة يريد المتكلم حمل مخاطبه على العمل بها ومقتضياتها. سواء أكان هذا التوجيه على محور الصريح أم الضمني لكن المعهود أن أطرف الحجاج وأنجعه ما كان على محور الضمني l'implicite... وإذا صدق هذا التصور المبدئي للحجاج في الطرح اللساني في المقاربة التداولية المندمجة، وإن كانت حدوده في المبالغة واضحة (انظر، عبد الله صولة: 2001 والمبخوت: 1999 والمبخوت في 2003 والناجح 2004 والناجح 2010) ـ قلنا إذا صدق هذا الطرح، فإن إمكانية إجرائه على خطاب المائدة، بناء على وعود صاحبيه، يصبح أمرا هينا يمكّن من نجاعة المنوال الحجاجي، إذا لم نقل إن خطاب المائدة قد يصحّح المنوال ويخصّبه. من أجل هذا وقبل الولوج في القسم الإجرائي من العمل نود تقديم بعض المقدّمات الأولية وهي في الحقيقة افتراضات hypothèses تتصل بخصائص محادثة المائدة وخطاب الطعام في علاقتها بمسلّمات التداولية المندمجة عامة سواء أكانت من خلال مباحث الاستدلال أم الحجاج أوحتى التحليل التداولي للملفوظ وللخطاب.

وعليه فإن هذه الافتراضات تتكئ على بعدين الأول تقني علمي يتصل بآليات تحليل الخطاب والمحادثة والملفوظ[1] في الدرس اللساني عامة حسب وسائط تقنية فنية من قبيل ما توفره مقاربات التداولية باختلاف مشاربها... والبعد الثاني حضاري فكري نفسي اجتماعي في إحالات الخطاب ومغازيه وقوادحه ومراميه. ولو أردنا صياغة هذه الافتراضات فإننا نوردها مرتبة في المسائل التالية :

1 ـ إن الحجاج، باعتباره مبحثا تداوليا، رهانه دراسة استراتيجية النشاط اللغوي المنجز ذي المقصد المعيّن في إطار تخاطبي يكون له نصيب الأسد في تحديد مقاصد القول، فإنه، أي الحجاج، يشق خطاب المائدة شقا يستند

(1) نستعمل في هذا المبحث مصطلحات [خطاب، نص، ملفوظ، محادثة] بما هي كلٌّ من خلال القاسم المشترك بينهما. ولا قاسم مشترك بينها سوى كونها نشاطا لغويا منجزا (للوقوف على الفويرقات بين ما نحيل إلى ريبول وموشلار 1997، والناجح 2007).

خاصة على وضعيات التلفظ التي تكيف المحادثة وترسم خطة المحادثة ومقاصدها.

2 ـ إنّ التداولية، والمندمجة منها خاصة، باعتبارها دراسة علمية للملفوظ في إطاره الخطابي ووضعه التلفظي في ضوء العلاقة بين المتكلمين، هي آلية ناجعة جدا من آليات معالجة خطاب المائدة الذي يوفر إطاره التفاعلي إمكانيات أخرى من الإنجاز اللغوي.

3 ـ إن خطاب الطعام، نظرا لخصائصه الإنجازية الخاصة التي تعود إلى وضعية التلفظ وحيثيات القول وباعتبار أن الطعام هو طقس ثقافي له إنجازه اللغوي الخاص شأن أي طقس ثقافي آخر، فإنه خطاب يقوم على ضرب خاص من الحجاجية نصطلح عليها (**الحجاجية الإمتاعية**) التي تقابل الحجاجية الإقناعية في الأدبيات الحجاجية السائرة. ولا يعني أن الإمتاعية لا تقوم على الخصائص الإقناعية بل إنّ الحجاج في خطاب المائدة هو القادح لهذا المفهوم الجديد للحجاج حتى في الخطابات الأخرى باعتبار أن الإمتاع هو صلب الغاية الإقناعية.

هذه إذن الفرضيات الثلاث التي ننطلق منها لمعالجة نص/ خطاب نرى أنه يمكن أن يكون نموذجا جيدا لآداب المآدب أو لما اصطلحنا عليه بـ«محادثة المائدة» conversation de banquet.

II ـ النص وعتباته[2] :

تدخل المقامة الجاحظية في مبحث أكبر هو جنس المقامة مع الهمذاني الذي تحكمه وتقدحه ظاهرة التكدية تماما مثلما يحكم البخل جنس النادرة غير أنّ ظاهرة التكدية إذا أنزلناها في إطار الطعام وخطابه فإنه لا يمكن أن

(2) نقصد بعتبات النص في طرح التحليل الحجاجي للخطاب تقديمه تقديما عاما في ضوء الأبعاد الحجاجية للخطاب.

نكشف عن علاقة المكدي بمخاطبه إلا في ضوء الوظيفة الحجاجية للغة. وإن كان، كما هو معلوم، قد عولجت المقامة في الدرس السردي لبيان هذه العلاقة في ضوء الصلة بين الخبر والخطاب وإن كانت هذه الجدلية يمكن استثمارها لبيان حجاجية المقامة...

والمقامة الجاحظية في هذه السياق نموذج جيد جدا لنضج ما يمكن أن نسميه بجنس حديث المائدة : حيث تقع هذه المقامة في ثلاثة أقسام هي :

1 ـ القسم الأول : التمهيد للمائدة أو جلسة انتظار الطعام.

2 ـ القسم الثاني : في صلب المائدة أو المؤاكلة.

3 ـ القسم الثالث : في ما بعد المائدة أو جلسة الفاكهة.

واللافت للانتباه أن هذه الثلاثية في الإنجاز اللغوي تقابلها ثلاثيتان ثلاثية ثقافية في طقس الطعام (المفتحات/ الطبق الرئيسي/ المحليات) وثلاثية حجاجية (تقديم الحجة/ حدث الإقناع أو معالجة الحجة/ العمل بمقتضى تلك الحجة) وعلى هذه الثلاثية تقوم خطابات الموائد : قسم أول هو لحظة انتظار الطعام وعادة ما يكون هذا الخطاب مبتسرا جديا لا هزل فيه وهو في هذه المقامة حدوده من بداية النص إلى قوله «ولو أهدى إلى ذراع لقبلت» وإن لم يذكر الهمذاني في هذا المقطع حيثيات التلفظ وإنما نفترض ذلك افتراضا على سبيل خصوصيات الجنس الأدبي. وقسم ثان هو لحظة الشروع في الأكل وهي أطول اللحظات خبرا كذلك كانت خطابا وهي عصب ما اصطلحنا عليه بحديث المائدة. وهي اللحظة المنتجة لخطاب له ضرب خاص من الحجاجية لأن خطاب هذه اللحظة حوّر في مفهوم الحجاج في حدّ ذاته وفي كلمة فإن الإنجاز اللغوي في هذه المرحلة له سمات خاصة تميّزه عن سائر المرحلتين. وقسم ثالث هو الحيز الزمني الذي يلي الطعام. وخطاب هذا القسم عادة ما يكون أطول من الأقسام الأخرى لأنه بمثابة

التتويج لهما. ولأنه بمثابة النتيجة لهما وهو يبنى على نسق عرفاني مغاير تماما وعلى مقاصدية خاصة intentionnalité. وعليه فإن المقامة الجاحظية قد صيغت حجاجيا وفق هذه الخطاطة، الثلاثية :

ـ **الوحدة الحجاجية الأولى** : من بداية النص «ولو دعيت» إلى «ذراع لقلبت» : مقدمة أولية هي تشريع للمؤاكلة وتمهيد لمحادثتها الرئيسية : أو مفتحات المحادثة قياسا على المفتحات في المأدبة وفي طقس الأكل عموما.

ـ **الوحدة الحجاجية الثانية** : من «فأفضى بنا السير» إلى «وزلنا عن ذلك المكان» : في صلب حديث المائدة : من حجاج الإقناع إلى حجاج الإمتاع: أوالطبق الرئيسي في المحادثة قياسا على الطبق الرئيسي في طقس الأكل.

ـ **الوحدة الحجاجية الثالثة** : من «فقال الرجل» إلى بقية النص: في امتداد حديث المائدة : من حجاج الإمتاع إلى حجاج الإقناع : أو المرطبات في المحادثة قياسا على المرطبات في رحلة المأدبة.

إن حجاجية حديث المأدبة من خلال جنس المقامة باعتباره أصدق الأجناس تعبيرا عن الضرب من الخطابات[3] ليست متعلقة بلحظة المؤاكلة فحسب. إذ أنّ هذا أمر لا اختلاف فيه وإنما طرافة المحادثة وحجاجيتها تشهد عليها استراتيجية بنائها الثلاثي كما بيّنا فيما سبق لكن السؤال المطروح ما هي الحجج العلمية على حجاجية هذا البناء الثلاثي؟

(3) ننطلق في هذا الطرح من تصور مفاده أن جنس المقامة متمحض لاحتواء محادثة المؤاكلة عكس النادرة التي لم يكن حديث الطعام هو عصب جنسها الأدبي والإحصاء خير دليل على ذلك فالمقامات التي كان موضوعها الطعام والمآدب أكثر عددا من النوادر التي كان موضوعها البخل بالأكل أو الشح به ثم إن جنس المقام كما نظر له النقاد له صلة بمقام المؤاكلة وسرد حيل المكدى في تلك المجالس (انظر : ما كتب توفيق بكار، حمادي صمود، كيليوطو، عبد الملك مرتاض).

للإجابة عن هذا السؤال نقترح محورين في معاجلة الخطاب الأول نصطلح عليه بالمحور البنيوي الأكبر macro - structural وطبعا يوازي هذا المحور ظله في الدلالة الكبرى. والثاني نصطلح عليه بالمحور البنيوي الأصغر micro - structural(4) وله أيضا نتائجه الدلالية:

I - في حجاجية البنية الكبرى :

I - 1 - حجاجية المقدمة الأولى :

تمتد هذه المقدمة الأولية على مدى الوحدة الحجاجية Unité argumentative الأولى باعتبارها القادح للمأدبة التي شرع لحضورها حجة السلطة «لَوْ دُعِيتُ إلى كُرَاعٍ لآجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِى إليّ ذِراعٌ لَقَبِلْتُ». وليست حجة السلطة وحدها من شرّع لحضورها، أي لحضور المأدبة، بل إنّ مفهوم الرفقة هو القادح الأساس، لما في الرفقة من مثيرات في طقس الطعام في المخيال العربي والإسلامي كيف لا و«خَيْرُ الطَّعَامُ مَا اجْتَمَعَت عَلَيْهِ الأيَادِي» وقد استعمل الهمذاني فعل «أثارتني» جاعلا الإسكندري في محل المفعول المتصل والجماعة المؤاكلين في مقام المفعول معه. وللمفعولية، باعتبارها من الفضلة في الوظائف النحوية دور حجاجي قوامه إتمام الخانة الفارغة في المعلومة أو المعارف المشتركة بين المتقبل/ المخاطب والكاتب الراوي. ينضاف إلى هذا اختيار الهمذاني لفعل [أثار] على لسان الاسكندري. ومعلوم أن هذا الفعل في سياقي المؤاكلة والرواية يمكن أن يكون من المشترك الدلالي فالطعام يثير الشهوة والخطاب يثير الرغبة في الاستزادة في السماع.

جاء هذا القسم الأول من المقامة مقدمة أولى غايتها التبرير justification لحضور المأدبة والتبرير جاء اعتمادا على حجة السلطة الدينية، وجاءت

(4) ـ لمزيد التعمق في هذا المنوال في التحليل انظر الناجح 2010.

غايتها ذات طابع خطابي Discursif قوامها التشريع لإجراء بقية المحادثة التي ستدور أثناء المطاعمة وعليه فإن وظيفة هذه القطعة الحجاجية séquence argumentative هي تماما مثل وظيفة المفتحات في المأدبة غايتها فتح الشهية لمزيد الاستزادة فيما فيه المتقبل/ المخاطب من السبل. وهي على قول الأسلوبين من باب التشويق وشد الانتباه.

فكيف بنى الهمذاني القسم الرئيسي من مقامته على أنقاض المقدمة الأولى أو ما اصطلحنا عليه بمفتّحات المقامة.

II ـ الوحدة الحجاجية II : من الإقناع إلى الإمتاع أم من التبرير إلى التعليل :

تخلّص الهمذاني أو بالأحرى الاسكندري الراوية إلى الوحدة الحجاجية الثانية وهي ما اصطلحنا عليه في مقدمة المقاربة بالطبق الرئيسي وقد كان المرور من الوحدة الحجاجية الأولى إلى الوحدة الحجاجية الثانية عبر [الفاء] في [فأفضى] و[الفاء] هنا متصلة بالفعل لها دلالات تكتسبها من تعلّقها بالفعل بناء على قول النحاة في الحرف من كونه يكتسب معناه من خلال متعلقه. فهي علاوة على دلالتها على الاستئناف والرتبة وهاتان وظيفتان تختزلان أهم معاني الفاء، فإنها في هذا السياق قد عملت دور العامل الحجاجي opérateur argumentatif الذي له وظيفة توجيه الخطاب Orientation du discours /discursive وجهة أخرى غير التي كان ينتظرها المخاطب. وبالتالي فهي توجه المخاطب نحو نتيجة مستهدفة يؤكد هذا الطرح ما قاله ديكرو [5] وفي وظيفة العامل الحجاجي من جهة وما قاله ابن هشام في حرف الفاء من جهة ثانية (انظر ابن هشام، 1999، مج I، 204 ـ 265).

(5) انظر ما قاله ديكرو في "الحجاج في اللغة" وما قاله أنسكومبر من بعده في "السلمية واللغة" والأبحاث التي جاءت من بعدهما من قبيل أبحاث ربول وموشلار 1997 وعبدا لله صولة 2001 وشكري المبخوت 1998 وعزالدين الناجح (2004، 2007، 2010).

والمتمعن في كلام ابن هشام في الفاء يجعلنا نرشّح الوظيفة التعقيبية لها... فالاسكندري ركن إلى الفاء تعقيبا وطلبا للاسترسال في خطابه وهذا إيذان منه بأن المحادثة لم تنته بعد.

*افتتح الهمذاني الوحدة الحجاجية الثانية ببيتين شعريين ليس لهما من وظيفة في الخطاب كله سوى كونهما قد ركن إليهما الاسكندري لجمع المعنى وضغطه ليتم تفريع المعاني المشتقة منهما بعد ذلك في بقية المقطع. فهذان البيتان هما، حينئذ، بمثابة الخلاصة أو الموجز الكثيف جدا الذي سيتفرع عنه الوحدة الحجاجية. وهنا لابد من طرح سؤال، ولو عرضا، هل من صلة للحجاج بالشعر؟[6] طبعا إذا سلمنا بالطرح القائل إن الحجاج هو الوظيفة الأولى للغة سيكون في الشعر حجاج. وإذا لم نسلم بهذا الطرح فإن سلب الوظيفة الحجاجية من الشعر يكون هو الجواب غير المقنع ويعلل أصحاب هذا الطرح ومنهم خالد ميلاد[7] بأن الخطاب الشعري خطاب عاطفة ووجدان عكس الخطاب الحجاجي الذي هو خطاب عقلي محض. وإن كنّا في هذا البحث نتبنى الموقف الأول لأننا نعتبر مع ديكرو وصولة أن الحجاج يشق جميع الخطابات بل الملافيظ والمحادثات. وعليه فإنّ هذين البيتين قد نهضا بوظيفة حجاجية قوامها أنهما بمثابة التبئير focalisation للمعنى الذي يلي البيتين. فالبيتان الشعريان هما القادحان لبقية الوحدة. وما بقي منها أي الوحدة الحجاجية هو بمثابة التفسير والتفصيل والتبرير والتعليل ولعله من أجل ذلك يمكن أن تكون بقية الوحدة هي جواب على سؤال «كيف ذلك» ؟ Comment ça.

(6) انظر أشغال ملتقى الحجاج والتواصل الذي نظمته كلية الآداب بالرشيدية أيام 21 و22 أفريل 2011 وأسهمنا فيه ببحث من صلة الحجاج بالشعر من خلال مقاربة لنص شعري لابن الفارض...

(7) قدم الأستاذ خالد ميلاد درسا عاما في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية من السنة الجامعية 2010 بين الجرجاني والسكاكي وقد أكد في درسيه عن خلو الشعر باعتباره خطابا استعاريا بابن الحجاج.

ويجيب الإسكندري حجاجيا على هذا السؤال بوابل من الجمل الفعلية المبنية أفعالها إلى المجهول :

فرش بساطها

بسط أنماطها

مدّ سماطها

واللطيف في هذا الوصف حجاجيا مسألتان: الأولى تتعلق بما يوفره التركيب من خلال بناء الفعل للمجهول. والثانية ما توفره الدلالة المعجمية لثلاثية (فرش+بسط+مد). أمّا وجه الحجاج من المسألة الأولى فهو أن الاسكندري أراد ببنائه الفعل للمجهول توحيد المخاطب (المتقبل/ السامع) إلى يسار أهل الوليمة من جهة أنّ الخدم والحشم هم من قام بهذه الأعمال كلها (الفرش، البسط، المد). ومعلوم كما يقول النحاة أنّ بناء الفعل للمجهول من الأسباب الداعية له شهرة الفاعل أو جهله أو التقيّة. والاحتمال الذي نرجحه في هذه المقاربة هو الاحتمال الثاني فالإسكندري قد يكون يعرف أهل الوليمة ولكن الجائز والمحتمل أنه لا يعرف خدمهم وحشمهم من أجل ذلك بنى الفعل إلى المجهول إشارة منه إلى ثراء مستضيفيه. فالمفهوم، كما يقول الأصوليون، من المبنى للمجهول أن الاسكندري نزيل عائلة ثرية وفي هذا تشويق لمتابعة رحلة القص من جهة وإعلاء من شأن الاسكندري وصوغ صورة «محترمة» لدى المخاطب فهو عين لذلك استضافة الأعيان. يؤكد هذا السلمية الدلالية من خلال المعانم الاقتضائية للأفعال [فرش/ بسط/ ومد] إذ الانتقال من العام [فرش] إلى الخاص [بسط] إلى الأكثر خصوصية [مدّ] آية على ثرائهم ويؤكد هذا المفهوم le sous - entendu انسجام الخطاب وتناسقه cohérence/cohésion في ما بقي من الوحدة الحجاجية عندما وصف الإسكندري الشخصيات والإطار العام [وقوم قد أخذوا الوقت بين آس مخضود وورد منضود ودن مصفود

وناي وعود]. وفي سبيل تعميق التوجيه الحجاجي انتقل الهمذاني عبر الإسكندري من وصف المفروشات إلى الضيوف والإطار العام. لينتهي إلى وصف المأدبة والمجلس على المائدة ومن هنا نلاحظ كيف بنى الخطاب على جدلية الحركة والسكون في مستوى الوصف وهذا مدعاة لإثارة مسألة حجاجية الوصف عبر مقولة النعت النحوية، التي يمكن أن تؤول على صفة الثبات والاستمرارية للموصوف عكس مقولة الحال رغم اشتراكهما في المقولة العامة وهي الوصفية، فلعلّ ركون الهمذاني للنعت وصفا للمأدبة وطقوسها يدخل في باب الحجاجية من جهة توجيه المخاطب إلى أن العائلة التي وقعت فريسة له هي من المترفين ومن عليه القوم، وحتى يكتمل المشهد وازن الهمذاني في نهاية المقطع الأول بإسهابه في استعمال الجمل الفعلية الدالة على ديناميكية المشهد وحيويته :

عكفنا على الخوان
تسافر يده على الخوان
تسفر بين الألوان
تأخذ وجوه الرغفان
تفقأ عيون الرغفان
ترعى أرض الجيران
تجول في القصعة
يزحم اللقمة باللقمة
يهزم المضغة بالمضغة

وقد جاء هذا الوصف الحدثي/الحركي مبأرا على حالة البطل الإسكندري، وفي ذلك إشارة إلى سلوكات العربي على الخوان في مرحلة تاريخية ما، فالهمذاني قد قدّم لنا لوحة فنية في هذا المقطع صوّر لنا فيها طقوس الطعام عند فئة معنية وهم المكدّون من الحضارة العربية الإسلامية.

فالمكدي نشيط الحركة ناجع الفعل لا يهدأ أبدا فهو عاكف معتكف على المائدة وكأنه في طقس عبادة وهو مسافر (تسافر يداه) على سفر (تسفر بين الألوان) لا يقر له قرار من طبق إلى آخر كالزاهد المتصوف من عبادة إلى أخرى. وفي مرحلة ثانية يصور الهمذاني معالجة المكدي للطعام بالحرب مستعملا وحدات معجمية تعود إلى الحقل المعجمي للحرب (تأخذ، تفقأ، تجول، تهزم)...

إن اللوحة الفنية التي قدّمها الهمذاني في تصويره لمشهد المؤاكلة لوحة يغلب عليها الجد والسكون وفي هذا إشارة إلى ثقافة كاملة في التعامل مع الطعام فالعربي يتعامل مع الخوان معاملته مع الدين والعدو في الحرب إذ الآمر جدٌّ كله. ما يؤكد طرحنا هذا الجملة الإسمية الحالية التي وردت على جهة التذيل عند قوله «**وهو مع ذلك ساكت لا ينبس بحرف**». ويأتي هذا الوصف، الذي تضافرت في تحقيقه مقولات النحو الدالة على الثبات (الجمل الاسمية+المركب النعتي) والدالة على الحركة (الجمل الفعلية+الأحوال)، تمهيدا للمحادثة الرئيسية أو لنقل عصب الخطاب المأدبي وعموده الفقري. فالهمذاني قد بنى خطابه وفق جدلية الحركة والسكون/ الصمت والكلام/ التلميح والتصريح/ المقدس والمدنس. وكانت خيوط الجهاز الحجاجي يحركها وفق حركة البطل لأنه منه المبتدأ وإليه المنتهى وهو صاحب المقدمات وصائغها وهو مرسل النتائج وعاصرها وما بقية أطراف المحادثة أو بقية الضيوف لا «اكسسوارات» ومصاحبات خطابية هامشية وظيفتها دفع عجلة السرد للوصول إلى العقدة القصصية من جهة ودفع الحركة العرفانية إلى الوصول إلى النتيجة الحجاجية. وإن بدا هذا التهميش غير ظاهر في بداية الخطاب في هذا المقطع تحديدا ففي نهاية هذا المقطع تبدو الحركة الحجاجية بأيدي الضيوف [ونحن في الحديث نجري معه، حتى وقف

بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ووصف ابن المقفع و..] ≠[وهو مع ذلك ساكت لا ينبس بحرف].

إنّ حجاجية المقطع الثاني الذي ارتأينا أنه يمثل حلقة الوصل بين المقدمة والنتائج والذي قارناه بـ«الطبق الرئيسي في المأدبة» قد صيغ صياغة حجاجية على جهة التمهيد والوصل للكشف عن المحادثة الأصل. فلا قيمة للمقدمات ولا للنتائج دون الرابط بينهما، فالمقطع قد صاغ حجاجية المقامة كلها عبر دوره في انسجام الخطاب كله. ولعل الملفوظ الانتقالي خير شاهد على ذلك يقول الهمذاني [ووافق أول الحديث آخر الخوان وزلنا عن ذاك المكان*فقال الرجل...]. إنّ مفهومنا للانسجام الحجاجي من خلال نص المقامة عامة ومن خلال هذا النص تحديدا يمكن مقاربته أو مقارنته بحسن التخلص في القصيدة العربية القديمة. ولا نقصد بالانسجام هنا مفهومه التقني اللساني وإن كانت بينهما علاقة تشابه لأنهما يقودان إلى الفائدة والزيادة في المعنى. ففي قوله «وافق أول الحديث آخر الخوان» فائدتان الأولى خطابية Discursif فنية تتصل ببنوية الخطاب والثانية حضارية فكرية. فالخطابية وظيفتها الإيذان بالانتقال من مشهد خطابي إلى آخر وهو الانتقال من المقطع الثاني إلى المقطع الثالث وإن شئت قلت الانتقال من الطبق الرئيسي إلى المحلّيات، وأما الحضارية فقوامها كشف النص عن مسألة ثقافية مهمة وهي أنّ المؤاكلة كانت على مراحل حتى في مستوى المكان فمكان الطعام غير مكان الشراب لذلك قال [وزلنا عن ذلك المكان] أي أنهم غادروا مكان الأكل إلى مكان الاسترواح وبلغتنا اليوم انتقلوا من [قاعة الأكل] إلى [قاعة الجلوس]... وهذه مقاربة يزكّيها ما تعيشه الحضارة العربية آنذاك من الترف والبذخ، ولعل سلوكنا الثقافي اليوم في المآدب، مآدب الزواج خاصة يستمد أصوله من التالد القديم فالمتعارف عليه اليوم في المآدب التونسية مثلا أنّ مكان الطعام غير مكان شرب الشاي. والنقلة عادة تكون مصحوبة بنقلة خطابية لينهي الضيوف حديثهم على مأدبة الشاي.

إنّ المستفاد من هذا القسم حجاجيا أنّه كان الممهد المباشر للمحاورة أوالمحادثة التي ابتدأت من على المأدبة وستنتهي بنهاية المأدبة نسجها الهمذاني في هذا المقطع الذي سبقه سرد وقص ليختم بالحوار المحض في المقطع الثالث. وآية أنّ الخطاب كان منسجما انسجاما دقيقا يوازي نشاط الطعام أنّ المقطع الثالث قد افتتح بملفوظ يشي بأن الإسكندري المحاجج الخطير كان يسمع ويرى فهو مشاهد وليس مشاركا في المحادثة. لأنه اعتنى بالطعام أكلا وبالحديث سماعا وحق له ذلك فهو رجل يعطي لكل ذي حق حقه وهو يعرف قدر المقامات وقيمتها. فهو لم يفرّط في منابه من الطعام وهو لم يسلّم في موقعه من الكلام، لذلك استرجاعا لحقه قال «أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه» ويمثل هذا القول تحيينا actualisation للمشهد الحواري الذي كان قد افْتتح منذ الشروع في المأدبة؛ ولهذا الملفوظ وظيفتان مركزيتان الأولى خطابية والثانية حضارية ثقافية تدخل في باب المعاش. فأما الخطابية فإنّ لهذا الملفوظ دورا في تحقيق ما اصطلحنا عليه بعملية التحيين وذلك بإدماج عنصر جديد في المحادثة بعد أن كان مشاهدا سيصبح مشاركا وهو الإسكندري فهذا الملفوظ إذا وظيفته إعطاء جواز مشاركة له وتجديد المحادثة ومعاودة لها في الدرس. وأما الحضارية الثقافية فإنه يكشف عن لياقة المتحاورين ولباقتهم في الحضارة العربية في باب أدب المجالس وعليه يمكن اعتبار هذا الملفوظ من قبيل «الملافيظ الجاهزة» التي يركن إليها المحاور ليطلب تجديد الحوار وإحياءه. ما يؤكد هذا الطرح هو ردة فعل بقية الأطراف التي استجابت صراحة وضمنا إشارة وعبارة. فالرجل بعد أن شبع وارتوى يبدو أقدر على السيطرة على المحادثة فهو قائدها وهو موجه ملافيظها منذ بدايتها بكيفية الإنشاء استفهاما (أين أنتم؟) والمفعولية مقولة تختزل موضوع المحادثة (من الحديث) والانقضاء زمنا (كنتم فيه). بهذه اللمسات الثلاث أمكن للإسكندري الإمساك بخيوط المحادثة من جديد ومن هنا تبدأ عودا

على بدء... مساكين، فعلا، هم محاوروه يحركهم كالدمى بمجرد أن صفعهم بالملفوظ القادح حتى انفلتوا انفلات «الزيت من الخابية».

يشهد على ذلك فعل «أخذنا»[8] وأخذ فعل يكون ناقصا مرة وتاما مرة وجاء استعماله هنا ناقصا يستدعي اسما يرفعه وخبرا ينصبه باعتباره فعلا من أفعال الشروع. وهو في الحقيقة شروع في الحجاجية الرئيسية التي ستكون بقية المقطع اختزالا لها في بنية ثلاثية أيضا...

إنّ ملفوظ [أين أنتم في الحديث الذي كنتم فيه] هو، حسب مقاربتنا، الكعب العامل cheville ouvrière في الخطاب. لذلك أردفه الهمذاني بفاء الاستئناف وقد تعلق بها فعل أخذنا الذي استتر اسمه وطال خبره [في وصف الجاحظ ولسنه، وحسن سننه في الفصاحة وسننه فيما عرفناه]. وعلى هذا القول énoncé سيأخذ الحوار مجراه وستأخذ المحادثة وجهتها الحجاجية الصرف. فخبر فعل [أخذ] قد أخبر القارئ أيضا بخطة الخبر والخبرة للإسكندري ومن ورائه الهمذاني. وفحوى الخطاب طرحان متعلقان بالجاحظ ومدرسته في الكتابة قوم منتصرون وقوم غير منتصرين له. ونود قبل معالجة المحادثة أن نشير إلى بعض المسائل الفنية والفكرية الحضارية في هذا المقام من النص :

(8) استعمال الفعل أخذ في هذا المقام من النص له أبعاد حجاجية خطابية يؤكدها المعنى المعجمي للفعل أخذ من جهة أن الهمذاني استعمل هذا الفعل معتمدا على معانيه الاقتضائية Les sèmes presspossitionneles التي تقر للبطل الاسكندري بالسبق وقوة الحجة. فعوض أن "يأخذوه هم" فإذا بهم بأخذهم "أخذ محاجج مقتدر" ويتحول الفعل من النقصان إلى التمام أي من عامليته الناسخية إلى عامليته الفعلية المحضة (انظر مادة : (ا.خ.ذ) في اللسان: الأخذ خلاف العطاء وهو أيضا التناول... وفي التنزيل كلا أخذنا بذنبه... وفي مقاييس اللغة : الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرع عند فروع متقاربة في المعنى وأما أخذ فالأصل حوز الشيء و.....وحجمه... وفي الصحاح:... أي خذ ما أقول لك ودع عنك الشك والمراء يقال خذ الخطام، وخذ بخطام المعنى... وفي القاموس المحيط : الأخذ التناول...) هذه التعريفة المعجمية هي إذا ما يجعل للفعل أخذ مظهرا حجاجيا يجعل الاسكندري صاحب قصب السبق في المحادثة فهو الذي كما قلنا آنفا سيأخذهم وسيؤاخذهم بعد أن ادعوا آخذه ومؤاخذته...

1 ـ أولا : إن المقطعين الأول والثاني من النص لم يكشف فيهما الهمذاني عن صلب المحادثة الحجاجية بقدر ما مهد لهما بحديثه عن مقامات القول وسياقاته. وتوجهه هذا يدخل في ما سميناه بالعوامل الحجاجية المقامية (انظر عزالدين الناجح، 2004، 2007، 2010).

2 ـ ثانيا: إن الملفوظ الذي اصطلحنا عليه "بالكعب العامل" في المقامة كان بمثابة بؤرة الاهتمام focus de l'importance في الخطاب كله خرج بالقارئ من حيثيات المقام ومقتضيات الأحوال إلى الحجاج الصرف والمبحث النقدي موضوع الحجاج وهو رصد مذهب الجاحظ في الكتابة. وكان هذا الإخراج على صعيدين لغوي ومسرحي/ بصري.

3 ـ ثالثا: إن نص المقامة إلى حدوده هذه يوفر لنا فائدة حضارية أنثروبولوجية بالأساس تتعلق بطقس الطعام الذي كشف عن رقي الثقافة العربية وانفتاحها. فالطعام عند العرب القدامى طعامان متصاحبان لا ينفصلان طعام أبدان وطعام أذهان متلازمان أبدا. فالمادية أنتجت أدبا ولا يخفى ما بينهما من الصلات...

جاء رد الجماعة على الإسكندري عاما جدا ينتصر للجاحظ [فأخذنا في وصف الجاحظ لسنه وحسن سنه في الفصاحة وسننه في ما عرفناه] حتى اعتبروه مدرسة... وأما عمومية ردهم فعند قولهم [فيما عرفناه]. وعلى هذا الطرح النقدي سيبني أبو الفتح الاسكندري بقية المحادثة ليقودهم وفق استراتيجية خطابه، التي اتخذ لها منهجا دقيقا يحكمه مبدأ عام هو الابتداء بالمسلمات postulats والمواضع العامة Topoi général أو les lieux communs وذلك في قوله : [يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ولكل دار سكان ولكل زمان جاحظ. ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم] ولا يخفى كيف بنى الإسكندري رده هذا، على الأقل في هذا المستوى الأول قبل أن يرسل الحجة «العلمية» و«الأكاديمية» حيث ابتدأ بالعام متجها إلى الخاص:

ثم توسل بالإثبات وصولا إلى الشرط. ولكن للشكل التالي بيان خطته في الرد الافتتاحي :

يا قوم[9] ← لكل عمل رجال
← ولكل مقام مقال
← ولكل دار سكان
} عام : (ح I)

∅ يا قوم ح II ← لكل زمان جاحظ   خاص : (ح II)

↓ وعليه (الحجاجية)

∅ يا قوم ن ← [لو انتقدم لبطل ما اعتقدتم]   أكثر خصوصية (ن)

إن هذا الشكل أعلاه يختزل كيف عالج الاسكندري المعطى الحجاجي لمخاطبيه الذين طغى عليهم الجزم والإصرار نصرة للجاحظ. لذلك ركن إلى النداء تنبيها والتنبيه حجاج محض (انظر صولة 2001، الناجح، 2007). وإلا فما نجاعة أن يناديهم وهم في حضرته! إنّ النداء تداوليا في هذا السياق وظيفته توجيهية محضة إلى أطاريح المنادى الذي ينبه مخاطبيه إلى أهمية ما سيقول. يؤكد هذه المقاربة وابل الملافيظ المتعلقة بالنداء. وهي ملافيظ كما قلنا آنفا موضعية des énoncés topiques لا يُنكرها ذو عقل اللهم إلا إذا كان ينتمي إلى العصر والمصر الذي لا يستغل تلك المواضع وهذا احتمال غير وارد فالجماعة جمعهم الطعام والكلام والبيئة العربية آنذاك فهم لا ينكرون أن «لكل عمل رجالا» ولا يرفضون «لكل مقام مقال» وهم يؤيدون «لكل دار سكان»...

وبما أنهم لا يرفضون هذه المواضع الثلاثة فإنّ الأحرى بهم أن يقبلوا ما قيس عليها وهي قوله [ولكل زمان جاحظ] باعتباره موضعا رابعا أنتجته

(9) ـ تع : ح 1 = حجة أولى . وح II = حجة ثانية ون : النتيجة.

المواضع الثلاثة السابقة على سبيل القياس. وهذه صفعة أولى لهم إذا قبلوها فإن أمره سيهون لأنه سيبنى بقية المحاجة عليها وسيقبلونها حتما لأنه صفعهم بسلاحهم عندما أقرّ للجاحظ بالمرجعية ولكنها مرجعية منقوصة سيفضحها بقية الخطاب [فهل رأيتم له... وهلموا إلى كلامه... فهل سمعتم له...].

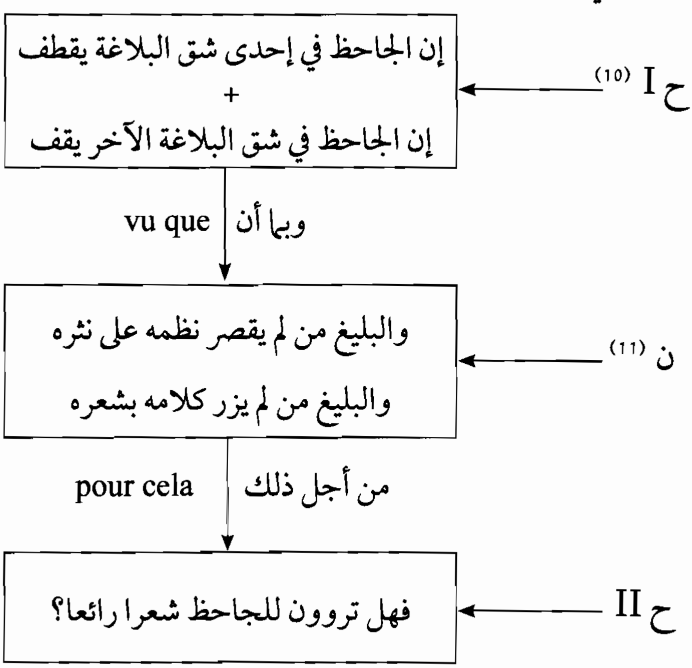
بعد أن قدّم الاسكندري مواضعه بنوعيها، ثلاثة عامة اختطفها من قفص حججه ومن الرصيد العام للفكر البشري وللمنظومة المشتركة وواحد من كدّ ذهنه أثبته وأقره بناء على قول المجموعة، يردف هذه المواضع بالشرط استنكارا وإن شئت عملا لغويا ثانيا على سبيل الاحتمال المستبعد وقوعه [ولو انتقدتم لبطل ما أعتقدتم] وأنّى لهم ذلك؟! وقد اتفق معهم على أربعة مواضع هي بمثابة العقد بينهم وبينه وقد قبلوها مسلّمين مذعنين، فلا يحق لهم الانتقاد الذي يفسد عليهم الاعتقاد. وما أخطره، الاسكندري، حتى في استعمال المعجم أثر الانتقاد على النقد لأنه "ديمقراطي" وهذه صفة المحاجج الناجع الذي يسمح لخصمه بالنقد الموضوعي البنّاء الذي غايته الوصول إلى الحقيقة لا غايته إخضاع المخاطب وإذعانه. ومن نجاعة خطابه ولباقته وصرامته كان رد فعل المجموعة على ضربين إشاري ولفظي . فأما الإشاري فنقله الهمذاني عند قوله [فكل كشّر له عن ناب الانكار واشمّ بأنف الإكبار وضَحِكْتُ له لأَجْلِبَ ما عنده...] وأما اللفظي فنقله على لسان أحد الضيوف [وقلت : أفدنا وزدنا...] وإن كان لا تعنينا ردة الفعل إشاريا فإن الجانب اللفظي من الرد هو موضوع اختبار الطرح الحجاجي للمقامة لأنّ الإشارة في المقامة مرتبطة بركحية المحادثة وهي بإيجاز من المعادلة الحجاجية تدخل في مقتضيات الأحوال ومن العناصر المساعدة في تحليل الخطاب الذي لخّصه الهمذاني في [أفدنا وزدنا] التي يمكن اعتبارها الضمان الصريح لتربع الإسكندري على عرش المحادثة،

وآن له أن يمد ساقيه، جاءت أمرا عملا لغويا مباشرا والتماسا ورجاء عملا لغويا ثانيا على مرحلتين عامة في [أخذنا] وخاصة في [زدنا].

والمحصل من ردّة الفعل بنوعيها الإشارية واللفظية أن الجماعة قد وقعوا في شراك الإسكندري إذ بُهتوا فطلبوا الإيضاح والزيادة والإفادة. وهذا برهان على أنهم قد أذعنوا وسلّموا تسليما لأطروحة الإسكندري الذي سقاهم الجرعة الأولى، وهي في الحقيقة جرعة عامة قد تناقش إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا لكن حكمة الإسكندري وحسن تصريفه للخطاب صرفهم عن ملاحقته طلبا المزيد وصدق عليهم قول المثل التونسي "سلّكنا يرحم والديك". وهذا ما يفتح للمحادثة منفذا آخر ويعطيها وجهة أخرى ذات بعد تعليميDidactique بل أكاديمي أيضا قوامه الانتقال من الدرس العام إلى المسائل الدقيقة المتعلقة بالاختصاص الدقيق. فالإسكندري قد أبان عن وجه الأستاذ المتخصص في الأدب العربي المتعمق في قسم القديم منه. يشهد على ذلك قوله [إن الجاحظ في أحد شقى البلاغة يقطف وفي الآخر يقف والبليغ من لم يقصر نظمه على نثره ومن لم يزر كلامه بشعره فهل تروون للجاحظ شعرا رائعا؟].

جاء كلام الإسكندري هذا استجابة للجماعة الذين طلبوا الإفادة والزيادة ظاهرا صريحا explicite وجاء ضمنيا implicite عربون انتصار واقتدار في محاجتهم فهم قد أذعنوا لأطروحته ولا شك لذلك طلبوا الزيادة على سبيل الإفادة وما عليه، أي الاسكندري، إلا أن يستغل الفرصة فيعمق ثقة المجموعة به عبر توجيههم بصدق إلى الأطروحة التي يدافع عنها وهي تنسيب المشروع الجاحظي. وهذا ما حدث فعلا من خلال رده الذي جاء منجّما وهو آية وبرهان على أستاذيته وحجاجيته وهو أستاذ يعطي الدرس جرعة جرعة على قدر إفهام طلبته وتلاميذه وهو حجاجي خطير يدقق الحجج وفق مقتضيات الأحوال. لذلك نزّه الجاحظ في مواطن [إن

الجاحظ في أحد شقى البلاغة يقطف] وقال موقفه منه في مواقف أخرى [وفي الآخر يقف] ليأتي الاستنتاج [والبليغ من لم يقصر نظمه على نثره ولم يزر كلامه شعره ثم يردفها بحجة تذييلية بالانساء استفهاما [فهل تروون للجاحظ شعرا رائعا؟]. وغاية هذا الملفوظ الأخير تثبت أطروحته من كون الجاحظ بارعا في شق وغاب عنه الشق الآخر. ولتيسر بناء الحجة نوردها في الشكل التالي:



لم يستطع الجمهور مواجهة هذا الجهاز الجزئي sous système الأول إلا بحرف وإن شئت قلت كلمة [لا] وقديما قال المثل التونسي [كلمة لا ما تجيب بلا] محاولة منهم في الاستزادة وإذعانا منهم لما سمعوه منه فكلامه مطبوع وصوته مسموع وحرف [لا] أنجى حتى تتحقق لهم مطالبهم التي شرعوا لها بـ[أفدنا وزدنا] وما أصدقهم في الطلب حيث لم يعارضوا ولم

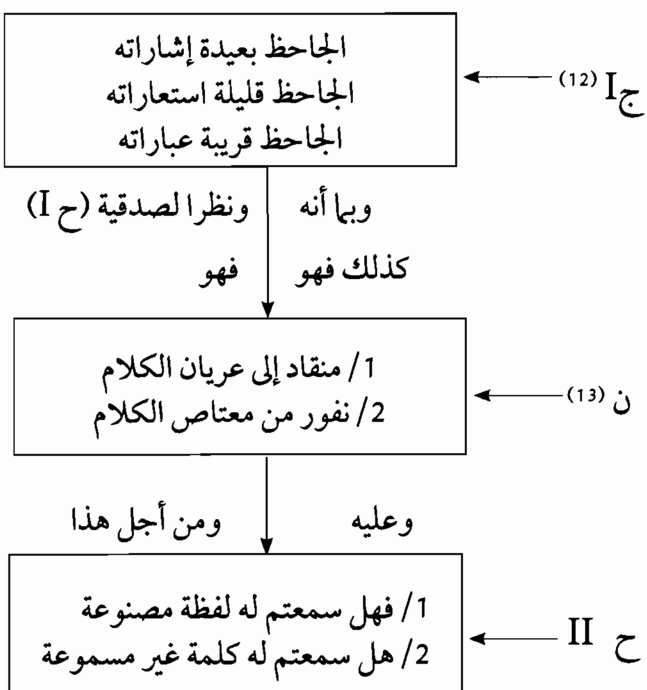
(10) ح I: حجة أولى
(11) ن : نتيجة وهي بمثابة حI لـحII. التي هي ن لـ[حI+ن].

ينكروا عليه. وأنّى لهم؟ وقد بذّهم. وما أكرمه معهم وما ألطفه لأنه سيزيدهم عبر اسم الفعل [هلموا] ومتعلقاته فهلموا ننظر كيف زادهم وأفادنا وأفادهم من خلال قوله [هلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات منقاد لعريان الكلام يستعمله نفور من معتاصه يهمله فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة].

جاءت مداخلة الشيخ الإسكندري الثانية مصدرة باسم الفعل «هلم» الدال على الآمر إنشاء متعلقا به مفعول يفيد الاتجاه المعنوي [إلى الكلام]. وفي استعمال اسم الفعل للآمر فائدتان حجاجيتان: الأولى تتعلق باستيفاء هذا الاستعمال لاسم الفعل لشروط التوجيه الحجاجي عبر التنبيه نداء على وجه الإضمار. فالتنبيه كما أسلفنا هو عصب الجهاز الحجاجي والفائدة الثانية تعليمه ديداكتيكية إذ استعمال اسم فعل الأمر قد قارب لنا صورة الإسكندري على أنه معلّم بارع لطيف رفيق بتلاميذه وقارب لنا الجمع على أنهم تلاميذ يلاطفهم رقة لا زجرا. وهذا المطلوب يدخل في إطار أدبيات الحجاج عامة والتعلمي منه بوجه خاص وأخلاقياته التي تقتضي أن يكون المحاجج لطيفا.

لقد أراد الإسكندري أن يجمع الضيوف على كلام الجاحظ [هلموا إلى كلامه] باعتباره مُخبرا indicateur ومخبرا laboratoire سيجري عليه أبحاثه. فما أنصفه، لقد ذكرني ببخيل الجاحظ القاضي المروزي يحكم لغيره قبل أن يحكم عليهم ويحكم على نفسه قبل أن يحكموا عليه. هكذا هو أدبنا القديم إحداثيات في الفكر والثقافة. إنه التجريب والاختبار / empirisme exprimentalisation، اتخذه الإسكندري مطية للإقناع والمحاججة فهو يتكلم عن خبرة لا عن خبر حتى يقفوا معه على حقائق الأشياء وفق مقاربة الكفايات يشاركونه إنتاج المعرفة والوصول إلى الحقيقة: فكيف كان كلام الجاحظ من خلال مقاربة الهمذاني النقدية في تحليل الخطاب على لسان الإسكندري.

قارب الإسكندري كلام الجاحظ من زاويتين. الأولى من جهة الكلام في حد ذاته ويمكن نعت هذه المقاربة بالبنيوية باعتباره عالج الكلام خارج إطارات المتكلم الجاحظ. والثانية من جهة القائم المتكلم الجاحظ. وهذه يمكن نعتها بكونها نفسية تتصل باختيارات الجاحظ ونفسيته. فأما المتعلقة بالكلام في حد ذاتها فقد أجراها على ثلاثة أبعاد: [فكلام الجاحظ بعيدة إشاراته، قليلة استعاراته، قريبة عباراته] وأما المتعلقة بذات المتكلم أي الجاحظ فقد أجراها على ثلاثة كذلك فالجاحظ [منقاد لعريان الكلام مستعمله وهو نفور من معتاصه يهمله] ويتخلص من هذا إلى استفهام متعلق بالجاحظ [هل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة] ويمكن أن تخلص بنية هذه المداخلة الثانية في الشكل التالي :



(12) ح I : حجة أولى مقدمات الانطلاق.

(13) ن : نتيجة لـ (حI) وهي قيام (ح I) لـ (ح II) التي هي ن لـ [ح I + حII].

إن هذا التدخل الثاني للإسكندري مشكلي من عدة جهات. خاصة في مستوى معالجة الطرح النقدي للهمذاني الذي أرسله عبر الإسكندري فهذا سيدخلنا في مآزق لات وقت حديث عنها... من قبيل التداخل بين المدارس الإبداعية والأطاريح الفكرية... لكن الذي يهمنا تقنيا هو كيف قُدَّ الملفوظ حجاجيا؟ فهذا الملفوظ شاهد على ما يمكننا تسميته بالوظيفة "الأرقى ميتالونقاج" La fonction argu ـ metalanguage. وذلك من خلال تناسل الملافيظ الحجاجية بعضها عن بعض في لولبية سلمية بعضها يقود إلى بعض (الإشارة/ الاستعارة/ العبارة] أو بعضها يفضي إلى بعض [ح I ←ن← ح II] سواء أكان هذا العبور أم الإفضاء على سبيل التشقيق dérivation أو على سبيل الترادف synonymie. وفي كلمة فإن الإسكندري قد أنكر على الجاحظ أسلوبه ومدرسته كاملة لأنه لا يكتب الشعر ولا يعتني بالمحسنات البديعية... وكعادته يتخلص من هذه المحادثة إلى التي تليها بالاستفهام مثلما تخلص مما سبقها إليها ! هكذا على التوازي [فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا↔ فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة]...

ويأتي رد الجماعة كالعادة على الاستفهام الإنكاري بـ«لا» دائما على محور الرغبة في الاستزادة والإفادة وعلى محور الإجابة الواقعية الحقيقة. فهم لا يعرفون للجاحظ شعرا ومن منا يعرف الجاحظ يقرض الشعر وهم لا يعرفون للجاحظ لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ومن منا يعرف للجاحظ كلمة غير مسموعة فكلامه كله يكاد يكون لقرب مآخذه من المتداول اليومي لذلك كان جوابهم بـ[لا] اختصارا وابتسارا وفسحا للمجال حتى يكمل الإسكندري درسه الذي سيأخذ منعرجا آخر. كان درسا نظريا فأضحى تطبيقيا. كان تشخيصا نظريا فأضحى ضربا للأمثلة. يشهد على ذلك دعوته لهم [فهل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن

منكبيك وينم على ما في يديك] في هذا المقام تغيّر الخطاب من مخاطبة الجمع إلى مخاطبة الفرد ومن التنظير إلى التطبيق ومن بسط النظريات إلى ضرب الأمثلة ومن الحديث عن الجاحظ إلى الحديث عن الأدب العربي عامة إلى الشعر منه بصفة خاصة وهل ثمة أمتع من الشعر العربي ! ألم يقولوا بأنه ديوانهم. والجواب على هذا الاستفهام جاء خبرا طلبيا[حرف جواب مع القسم] = [أي والله] لكن المفاجأة أن الإسكندري جعل طلبه مشروطا بالنوال [فاطلق لي عن خنصرك بما يعينني على شكرك] ويحق له ذلك فقد أكرمهم بالدرس كاملا نظرية وتطبيقا وبذهم في المحاورة الأولى وهزمهم في الثانية لذلك كان الرداء نوالا له [فنلته ردائي] على سبيل الرهان والمراهنة... وحق له أن يفوز بالرهانين المعنوي والمادي.

أختتم النص حجاجيا في لحظة تسلّم الرداء فهو عربون تسليم من الخصم للإسكندري وإذعان لأطروحاته سلم عقله وقلبه واعتقاداته وترجم ذلك فيزيائيا فسلمه الرداء، لقد رفع الراية البيضاء على قول أهل اليوم.

وباختتام المحاجة يكون حديث المأدبة قد انتهى. ليتحول الكلام من سياق إلى آخر من سياق الأدب والمأدبة إلى التكدية والتحيل. فإذا هذا الحجاجي متحيل خطير.. فقد سلب الجماعة ألبابهم وأموالهم..

وبعد، فإنه يحلو لنا في خاتم هذه المقاربة أن نشير إلى:

1*أن خطاب الطعام في الأدب العربي مخبر جيد جدا لتخصيب النظريات اللسانية الحديثة وخاصة المتعلقة بتحليل الخطاب والتداولية.

2*أن المقامة باعتبارها خطابا يشهد على حجاجيتها مستويان: الأول يتعلق بالخطة التي بنيت وفقها المقامة. وهذا ما يمكن أن نصطلح عليه بالحجاجية الكبرى. والثاني يتعلق بالإنجاز اللغوي التلفظي من قبيل البنى التركيبية والوحدات المعجمية والروابط والعوامل الدلالية والتداولية الحجاجية وهذا ما يمكن أن نصطلح عليه بالحجاجية الصغرى.

3*أن المساهم في حجاجية المقامة ليس العناصر اللسانية فحسب، بل إن المقام وحيثيات القول ومقاصد المتكلم كلها عوامل مساهمة في توجيه الملفوظ وجهة حجاجية.

4*أنّ أدب المآدب من خلال جنس المقامة قد أعطى للحجاج في النظرية اللغوية والتداولية المندمجة خاصة مفهوما جديدا فبعد أن كنّا نتحدث عن الحجاج باعتباره إقناعا أصبحنا نتحدث عن الحجاج باعتباره إمتاعا. وهذا عائد إلى العناصر اللسانية المتعلقة خاصة بالمحادثة في نص المقامة وهي مرتبطة بالمتكلم ومقاصده وهي التي تساهم في تقوية نشوة الحجاج الإمتاعي في الخطاب.

5*لقد كشف خطاب المقامات عامة في باب أدب الطعام عن أن الحضارة العربية لها تقاليد متجذرة في التعامل مع المأدبة وما يزيدها تعقيدا هو صحبتها لنشاط لغوي معقد بل أشد تعقيدا من نشاط الأكل لذلك كانت المأدبة في الحضارة العربية الإسلامية مأدبتين : مأدبة أذهان ومأدبة أبدان..